المحاضرة الثانية: تاريخ علم الاجتماع(من التفكير الاجتماعي إلى علم الاجتماع)

- ماقبل علم الاجتماع:

ماقبل علم الاجتماع يشير إلى الفترة أو الأفكار الفكرية التي سبقت ظهور علم الاجتماع كعلم مستقل في القرن التاسع عشر، قبل أن يتبلور علم الاجتماع كتخصص أكاديمي له منهجيته الخاصة، كانت الدراسات الاجتماعية تطرح ضمن إطار الفلسفة، الدين، التاريخ، والاقتصاد السياسي، ويمكن تلخيص أهم النقاط حول هذه الفترة على النحو التالي:

- الفكر الفلسفي والديني في العصور القديمة والوسطى:

• **الفلسفة اليونانية:** فلاسفة مثل أفلاطون وأرسطو تناولوا قضايا اجتماعية كالعدالة، النظام الاجتماعي، وتنظيم الدولة، فأفلاطون في "الجمهورية " وأرسطو في "السياسة" ناقشا بنية المجتمع والسلطة، لكنهما لم يستخدما منهجية علمية بالمعنى الحديث.

• **الفكر الديني:** في العصور الوسطى سيطرت الأديان على تفسير الظواهر الاجتماعية في العالم الإسلامي، وقدم ابن خلدون(1332-1406) أفكارا رائدة في "**المقدمة**" ، حيث تحدث عن العصبية الاجتماعية ودورها في صعود وسقوط الحضارات مما يعتبر أساسا مبكرا لعلم الاجتماع.

• **في أوروبا المسيحية:** كان القديس أوغسطين وتوما الأكويني يفسران المجتمع من منظور ديني مركزين على الأخلاق والنظام الإلهي.

- عصر النهضة والتنوير:(القرنين 16-18)

• **النهضة:**بدأ الاهتمام بالإنسان والمجتمع بشكل كبير في هذا العصر حيث شهد تطورا كبيرا في الفكر الاجتماعي، وكان مفكرون أمثال توماس هوبز وجان جاك روسو قد ناقشوا فكرة "**العقد الاجتماعي**" التي تعنى بكيفية تنظيم المجتمعات، وعلاقة الفرد بالدولة كما

ساهم مونتيسكيو في فكرة تقسيم السلطات وتحليل الأنظمة الاجتماعية في "**روح القوانين**"، في هذه الفترة بدأ التركيز على العقل والملاحظة بدلا من التفسيرات الدينية، مما مهد الطريق لظهور العلوم الاجتماعية.

- الثورة الصناعية والتغيرات الاجتماعية:

في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر أدت الثورة الصناعية إلى تغيرات اجتماعية هائلة مثل: التصنيع، الهجرة إلى المدن، وظهور الطبقات الاجتماعية الحديثة (البرجوازية و الطبقة العاملة)، هذه التغيرات دفعت المفكرين إلى دراسة المجتمع بشكل منهجي، وظهرت أفكار اقتصادية وسياسية من مفكرين مثل آدم سميث سميت **الاقتصاد السياسي** وكارل ماركس عرفت **بالصراع الطبقي**، مما أثر على تطور علم الاجتماع.

ابن خلدون كرائد مبكر: ويعتبر ابن خلدون من أوائل من وضعوا أسسا لعلم الاجتماع من خلال تحليله للعصبية ودورها في بناء المجتمعات وتفسير التاريخ، وركز على دراسة المجتمع بشكل منهجي مع الاهتمام بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

- لماذا لم يكن هناك علم اجتماع مستقل؟

قبل القرن التاسع عشر لم تكن هناك منهجية علمية واضحة (مثل الملاحظة والتجريب) لدراسة المجتمع، وكانت الأفكار تطيح ضمن إطار فلسفي أو ديني أو أدبي، ولم تتوفر الأدوات الإحصائية أو البحثية الاجتماعية التي مكنت لاحقا علماء مثل أوغست كونت وإميل دوركايم من تأسيس علم الاجتماع.

بداية علم الاجتماع :

يعتبر أوغست كونت (1798-1857) أبو علم الاجتماع حيث صاغ مصطلح الاجتماع Sociology، ودعا إلى دراسة المجتمع بمنهجية علمية و تبعه في ذلك إميل دوركايم، ماكس فيبر، وكارل ماركس الذين وضعوا الأسس النظرية والمنهجية للعلم.

ماقبل علم الاجتماع كان فترة تمهيدية تميزت بأفكار فلسفية ودينية وسياسية تناولت المجتمع بشكل غير منهجي، ومفكرون مثل ابن خلدون وروسو ومونتسكيو قدموا أفكارا مهمة، لكن الثورة الصناعية والتقدم العلمي في القرن التاسع عشر هما اللذان ساهما في ظهور علم الاجتماع كتخصص مستقل.

تاريخ علم الاجتماع:

كان ظهور الدول الحديثة واستقلالها سببا في ظهور الفلاسفة والمفكرين الذين تناولوا الدولة وصلتها برعاياها والمجتمع ونشأته وتطوره، ولقد كثر الجدل والنقاش حول كثير من الموضوعات، وكان من أبرز هذه الدراسات دراسة الكاتب الإنجليزي "**توماس هوبز**" حيث ميز في دراسته بين مجتمعين؛ مجتمع على حالة الطبيعة وهو مجتمع لا يوجد على رأسه حكومة ووصفه بالمجتمع الفوضوي، لذلك تكون حياة الأفراد فيه شر وخوف ولا مجال لممارسة الأنشطة الاقتصادية، أما النوع الثاني من المجتمع فهو المجتمع الذي يخضع لحاكم.

وعلى الرغم من التاريخ الطويل للإنسان ومعرفته بالحياة الاجتماعية منذ نشأته الأولى، إلا أن عمر علم الاجتماع قد لا يتجاوز المائة عام، وهو كما يقول روبرت ميرتون "**علم جديد جدا لموضوع قديم جدا**".

ويشير بعض المؤرخين إلى أن التفكير والفلسفة الصينية الاجتماعية تمثل أقدم تفكير منظم عن المجتمع قبل عصر سقراط، إلا أن المفكرين الصينيين بقوا متوافقين في نفعية ضيقة

وأخلاقية قاسية لم تبذل أي اهتمام للنظر في الآلام البشرية خاصة آلام النساء منها، وكما يقول بعضهم أن الفضل يرجع إلى فلاسفة اليونان في وضع أساس العقلانية الغربية، وإلى ظهور أول تفكير منظم فتح باب الأساليب العلمية في الموضوعات الاجتماعية كاملاحظة والمقارنة والنقد وغيرها، ولم يمسوا ما له علاقة بالعادات والأساطير والخرافات بل ذهبوا يفتشون عن الحق الطبيعي في احترام الشخصية الإنسانية ودافعوا عن الفرد، كما اهتموا أخلاقيا بالدفاع عن فكرة المساواة ومقارعة العبودية والوطنية الضيقة التي تمثلها المدن اليونانية.

ولكن في المقابل لا يمكننا أن ننسى "ابن خلدون" وماله من الفضل في إعطاء التاريخ تعبيره الاجتماعي عندما تحدث عن أحوال الناس وعاداتهم وتقاليدهم وسبب استعلاء بعضهم على بعض، ويقول "هاري بارنس" أن أهم ما ميز هذا المفكر هو فصله بين ما سماه بالتاريخ القصصي المملوء بالخرافات والأوهام، وبين التاريخ العلمي الذي يقوم على تحري الحقائق، وفي تحليله لأثر البيئة الطبيعية على المجتمع، فقد تحدث عن تأثير الهواء في ألوان البشر وأخلاقهم والكثير من أحوالهم وهو السباق في علم اجتماع المدن، وفي اختلاف أنواع الصناعات والحرف فيها، وفي الرزق والكسب والمعاش وأصنافه ومذاهبه، ويقول"سوروكين" أن ابن خلدون ناقش جميع المسائل التي ترد دائما في موضوعات علم الاجتماع العام وفروعه المختلفة، كما أنه في مجال التاريخ يعتبر مؤسس التاريخ العلمي.

- الفكر الاجتماعي القديم:

الفكر الاجتماعي القديم هو مجال واسع يتناول كيفية فهم المجتمعات القديمة لعلاقاتها الاجتماعية وكيفية تنظيمها وتفاعلها مع محيطها، ويتضمن هذا الفكر مجموعة من الأفكار والمفاهيم التي تطورت عبر الزمن في مختلف الحضارات نذكر منها:

الحضارة المصرية القديمة: تميز الفكر الاجتماعي في مصر القديمة بالطابع العلمي، حيث ارتبط بشكل كبير بالزراعة والقوانين وكان هناك اهتمام كبير بالجوانب الأخلاقية والإنسانية مثل طاعة الوالدين، والأمانة مما يعكس مدى أهمية القيم الاجتماعية في تلك الفترة.

الحضارة اليونانية: في الحضارة اليونانية كان للفلاسفة مثل أفلاطون وأرسطو تأثير كبير على الفكر الاجتماعي فأفلاطون على سبيل المثال قدم رؤى حول المجتمع المثالي في كتبه مثل "الجمهورية" و "السياسة"، حيث ناقش مراحل تطور المجتمع وأهميةالتنظيم الاجتماعي.

الحضارة الصينية الهندية: هذه الحضارات قدمت رؤى مختلفة حول كيفية تنظيم المجتمع وتأثير القيم الثقافية والدينية على العلاقات الاجتماعية.

– **الفكر الاجتماعي في العصور الوسطى:** تميز الفكر الاجتماعي في العصور الوسطى في أوروبا بسيطرة الكنيسة بشكل كبير، حيث كان الدين هو المرجع الأساسي لتفسير كافة الظواهر الاجتماعية وتبرير النظام القائم.

الخصائص الرئيسية للفكر الاجتماعي في العصور الوسطى:

ومن أهم هاته الخصائص سيطرة الكنيسة الكاثوليكية، حيث كانت أقوى مؤسسة في العصور الوسطى وقد خضع عالم الفكر بأكمله لتعليم الكنيسة، بالإضافة إلى التنظيم الاجتماعي الهرمي فقد كان المجتمع مقسما إلى طبقات اجتماعية واضحة على شكل هرم، ومن هذه الخصائص أيضا علاقة الإيمان بالعقل ومانت القضية المحورية التي شغلت مفكري العصور الوسطى وهي علاقة العقل بالدين أو العلم بالإيمان، وقد ساد في هذه الفترة اعتقاد بأن الفرد يكتسب هويته من خلال انتمائه إلى جماعة مثل العائلة أو الطائفة أو الحزب، أو مايعرف بالنظرة الجماعية للمجتمع، وبشكل عام كان الفكر الاجتماعي في العصور الوسطى انعكاسا للبنية الاجتماعية والسياسية والدينية لتلك الفترة، حيث شكل الدين حجر الزاوية في فهم المجتمع وتنظيمه.

- الفكر الاجتماعي في عصر النهضة والتنوير:

يمثل عصر النهضة (ق 14-17) وعصر التنوير (ق18) فترتين محوريتين في التاريخ الأوروبي أحدثتا تحولا جذريا في الفكر الاجتماعي والسياسي، ومهدتا الطريق للحداثة وفيما يلي أبرز الأفكار الاجتماعي في كل عصر.

الفكر الاجتماعي في عصر النهضة:

كان عصر النهضة بمثابة جسر إنتقالي بين العصور الوسطى والعصر الحديث، وتميز الفكر الاجتماعي في هذه الفترة بالتحول التدريجي من النظرة التي تركز على الدين والميتافيزيقا إلى نظرة أكثر إنسانية وعقلانية.

أبرز سمات الفكر الاجتماعي في عصر النهضة:

-صعود النزعة الإنسانية: حيث تم إحياء الاهتمام بالفنون والفلسفة والكلاسيكية والآداب، مما أدى إلى التركيز على الإنسان وقدراته وإنجازاته بدلا من التركيز على الجانب الإلهي.

-تراجع الإقطاع ونمو المدن: بدأ النظام الإقطاعي بالضعف مع نمو التجارة والمدن، مما أدى إلى ظهور طبقة جديدة هي البرجوازية هذه الطبقة حملت معها قيما جديدة تتعلق بالعمل والكفاءة والثروة، متحدية بذلك الهيكل الاجتماعي التقليدي القائم على النبل والأرض.

-الفردية: فمع تراجع سلطة الكنيسة والجماعات التقليدية برز مفهوم الفرد المستقل الذي يمتلك الحق في التفكير واتخاذ القرار بنفسه.

-بداية النقد للسلطة الدينية: فعلى الرغم من أن المجتمع ظل متدينا إلا أن عصر النهضة شهد بداية التشكيك في السلطة المطلقة للكنيسة.

الفكر الاجتماعي في عصر التنوير:

يعرف عصر التنوير ب"**عصر العقل**" حيث هيمنت أفكار العقلانية والعلم والحرية على الفكر الأوروبي ومن أبرز سمات الفكر الاجتماعي في عصر التنوير:

-سيادة العقل والتجريب حيث أن العقل والتجريب هما المصدران الأساسيان للمعرفة (ديكارت وجون لوك).

-نظرية العقد الاجتماعي، وظهرت فكرة أن المجتمع والدولة ليسا كيانين إلهيين بل هما نتاج عقد اجتماعي بين الأفراد الأحرار(جون جاك روسو و جون جاك).

-الحقوق الفردية والحرية، حيث انتشرت أفكار الحرية الفردية وحرية التعبير والتسامح الديني.

باختصار، وضع عصر النهضة الأسس بالتركيز على الإنسان والفرد بينما قام عصر التنوير بتطوير هذه الأفكار إلى نظريات سياسية واجتماعية متكاملة تدعو إلى العقلانية والحرية والحقوق، والتي أثرت بشكل مباشر على قيام ثورات كبرى مثل الثورة الأمريكية والفرنسية.

- الفكر الاجتماعي الحديث:

الفكر الاجتماعي الحديث يشير إلى مجموعة من الأفكار والنظريات التي نشأت وتطورت من القرن التاسع عشر حتى اليوم، ويعكس هذا الفكر التغيرات الجذرية في المجتمعات البشرية نتيجة للتطورات الاقتصادية والسياسية والثقافية، ومن بين أهم النقاط التي تناولها الفكر الاجتماعي الحديث:

-المدارس الفكرية (الوضعية، الماركسية، الوجودية).

-التغير الاجتماعي.

-الهوية والإنتماء.

-النظرية النسوية.

-العلوم الاجتماعية.

-التحولات العالمية.

العوامل الممهدة لنشأة علم الاجتماع:

انطبعت بدايات القرن التاسع عشر بميلاد علم جديد كان نتاج مخاض عسير، تصارعت فيه النظريات الفلسفية والتيارات الفكرية والأيديولوجية، وقد عرف هذا القرن تحولات عميقة كانت بمثابة اللبنة الأولى لنشأة علم الاجتماع وتبلوره في أعقاب الفكر الاجتماعي عبر التاريخ، وفيما يلي ذكر لأهم العوامل الممهدة لظهور ونشأة علم الاجتماع:

أ) الحضارة اليونانية:

- **سقراط:** يزعم مؤرخو الفكر اليوناني أن سقراط كان أول من نسب الفكر الإنساني للشؤون الاجتماعية للإنسان،باعتباره أول من أقر التأمل الفلسفي في الطبيعة،ومهد لمعرفة خالية من الميتافيزيقا.

- **السفسطائيون:** تجسد السفسطائية البدايات المبكرة للفكر الاجتماعي المنهجي في المجتمع الإغريقي، ذلك أنهم كانوا بحق رواد الفكر الاجتماعي الجدلي في صورته البدائية فقد اتجهوا اتجاها حسيا واقعيا نقديا في معالجة الموضوعات الاجتماعية، ولو تعرضنا لمؤلفاتهم هذه لوجدنا أنها تعكس دورهم في توجيه الاهتمام ولفت الأنظار والأفكار إلى الوضع الاجتماعي وقد اعترضوا على الآراء الفلسفية الميتافيزيقية التي تهتم بالكليات المجردة والعموميات المختلفة والمسلمات الثابتة، كما انتقدوا فكرة القيم المجردة والحقيقة المطلقة وأيدوا فكرة النسبية الاجتماعية.

- **أفلاطون (347_429م):**

يعتبر أفلاطون من أهم أعلام الفكر اليوناني في القديم، إذ أنه أول من طرح فكرة أن المجتمع متكون من أنظمة متصلة، هاته الأخيرة تتضمن النظام الديني، الأسري، السياسي، الاقتصادي، كما أنه صاحب تصور المدينة الفاضلة على اعتبارها الوحدة السياسية الكبرى وتقوم معالجة أفلاطون للمدينة الفاضلة على ثلاثة أقسام رئيسية:

* دعائم المدينة الفاضلة وعناصرها الاجتماعية.

* معالجة الحكومة المشرفة على المدينة.

* التربية الاجتماعية.

- **أرسطو(322_384م):**

من أهم الفلاسفة اليونانيين وتلميذ أفلاطون غير أنه يخالفه في كثير الأفكار، حيث تتسم كتاباته بالواقعية وتنطوي على عدة مبادئ اجتماعية ومسلمات أهمها:

* الإنسان حيوان اجتماعي سياسي لا يمكنه العيش بمعزل عن المجتمع.

* الأسرة هي الخلية الاجتماعية الأولى.

* لا يمكن دراسة الإنسان مستقلا عن الأسرة.

* الإطار السياسي للمؤسسة هي الدولة.

* العدالة لا تتحقق ألا بواسطة تطبيق القانون الأخلاقي.

ب) الحضارة الإسلامية:

اهتم كثير من المفكرين العرب قبل مجيء الإسلام بجوانب عدة من الفكر الاجتماعي ،حيث كانت لهم مجموعة من العادات والتقاليد والنظم ،كما أنهم فكروا في شؤون الحياة والمجتمع من خلال صناعة لقاءات لمناقشة مشكلاتهم، ومحاولة إيجاد حلول لها ،ومع مجيء الإسلام تعززت الوحدة القومية للعرب من خلال وحدة تلك العادات والتقاليد،فكان الإسلام بمثابة المنظم لحياة الإنسان من خلال ما جاء به القرآن الكريم، ومن أهم مفكري الحضارة الإسلامية نجد:

- **أبو نصر الفرابي (874_950م):**

تأثرت أفكار الفرابي بالفيسلوف اليوناني أفلاطون وآرائه المثالية، حيث كان مؤلف "آراء أهل المدينة الفاضلة" من أهم كتاباته من الناحية الاجتماعية، وأشار فيه إلى تعاون أفراد المدينة في بعضهم البعض لتحسين العدالة والمساواة، كما أشار إلى أشكال المجتمع الإنساني وقسمه إلى قسمين: مجتمعات إنسانية كاملة ومجتمعات إنسانية غير كاملة.

- **ابن خلدون (1332_1402م):**

يعتبر ابن خلدون أول عالم اجتماع والمؤسس الأول لهذا العلم، فقد شدد على حاجة الفرد إلى الاجتماع من أجل البقاء، وأكد على وجود علم يهتم بدراسة الواقع الاجتماعي للإنسان وأطلق عليه اسم "**علم العمران البشري**"، وأشار فيه إلى ظواهر العمران البشري خاصة ما تعلق بالتطور الاجتماعي، وحدد وظيفة علم الاجتماع في كشف مجموع القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية في حد ذاتها و أدائها لوظائفها وكذا تطورها.

الظروف المساهمة في نشأة و تطور علم الاجتماع

مما لاشك فيه أن الفكر الإنساني قديم قدم الإنسان نفسه، وقد تمكن من خلاله من بناء مجتمع بشري متميز فكون حضارات عريقة بقيت راسخة على مر التاريخ، وهذا دليل على اهتمام الإنسان بواقعه وبيئته الاجتماعية، ومن هذا المنطلق يمكن القول أن علم الاجتماع كعلم إنساني لم يظهر من فراغ بل كان تحصيل حاصل من خلال توافر مجموعة من المؤثرات الفكرية والاقتصادية والسياسية، وقد تطور التفكير الاجتماعي عبر مراحل تاريخية متعاقبة.

- **العوامل الفكرية:**

تشكل مجموعة العوامل الفكرية طبيعة الآراء والاتجاهات والأفكار والإيديولوجيات والمذاهب والتيارات النقدية الراديكالية، التي ظهرت في أوروبا خلال عصر التنوير والمراحل الأولى من العصر الحديث، والتي لعبت دورا أساسيا في تشكيل آراء و اتجاهات ونظريات علماء الاجتماع، وتصوراتهم عند دراستهم الظواهر والمشكلات الاجتماعية، كما أثرت هذه العوامل في تكوين آراء الباحثين المتخصصين في علم الاجتماع و طبيعة النزعات والمذاهب الفكرية التي ينتمون إليها، ومن ناحية أخرى فقد مهدت العوامل الفكرية إلى ظهور مجموعة من مناهج وطرق البحث الاجتماعي التي ساهمت في دراسة التطورات السوسيولوجية وتطويرها من أجل دراسة الظاهر والحياة الاجتماعية، التي ظهرت مع ظهور المجتمع الصناعي الحديث.

- **العوامل الاقتصادية:**

يعد قيام الثورة الصناعية في بريطانيا من أهم العوامل التي ساهمت في نشأة وظهور علم الاجتماع، والتي انتقلت إلى عديد الدول الأوروبية وكذا دول العالم الثالث إلى جانب مجموعة من العوامل الاقتصادية الأخرى التي لا تقل أهمية عن الثورة الصناعية، والتي

أحدثت تغيرات جذرية في الأنظمة الاجتماعية والسياسية وطبيعة البناءات التي أثرت على المجتمعات وعلى علم الاجتماع، ومن أبرزها:

* توسع رقعة المستعمرات والتهافت من أجل الثروات الاقتصادية.

* ظهور المدن الصناعية.

* تغير نمط البناءات والنظم الاجتماعية.

* ظهور الرأسمالية ونمو مشكلات التحضر والطبقات الاجتماعية العمالية

* نشأة المجتمع الصناعي الحديث

- **العوامل السياسية:**

أسهم قيام الثورة الفرنسية سنة 1789م في بلورة الفكر الاجتماعي، وتعتبر من العوامل السياسية التي كانت سببا في تطور علم الاجتماع وتركيزه على دراسة وتحليل المشكلات الاجتماعية الفكرية والاقتصادية التي انبثقت عن الثورة الفرنسية، وكذا الثورة الصناعية وما صاحبهما من ثغرات داخل المجتمع، وقد جاءت هذه الثورة كرد فعل للفرنسيين على الأوضاع المزرية التي عانوا منها في تلك الفترة كالتسلط والاستبداد وظهور البيروقراطية، بالإضافة إلى تأثر بعض المفكرين بآراء فلاسفة عصر التنوير، والتي كانت الممهد الأول لقيام هذه الثورة.